

# الأديب و المفكر الراحل رمضان عبد الرحمن لاوند

برنامج هل تعرفني؟



أبو فراس الحمداني

مؤثرات موسيقية..

وَإِيَّيَ جَرَّارٍ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ

مُعَوَّدَةٍ أَنْ لَا يُجَلَّ بِهَا النَّصْرُ

وَإِيَّيَ لَنْزَالٍ بِكُلِّ مَخْوَفَةٍ

كَثِيرٍ إِلَى نُزَالِهَا النَّظْرُ الشَّنْزُرُ

وَمَنْ أَنْاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا

لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرُ

في بيت من بيوت الأكرمين ولدت. قتل أبي من أجل الملك وأنا بعد في الثالثة من عمري.. قتله ابن أخيه ناصر الدولة أمير الموصل. وقد كان سقوط أبي رحمه الله في ميدان التسابق إلى الحكم شيئاً طبيعياً. فالحكم في عهدنا من القرن الرابع الهجري لا يتسع لأكثر من رأس واحد. أما صاحب هذا الرأس فلم يكن والذي بالطبع بل سواه. هكذا بدأت حكايتي مع الدنيا. إنها حكاية يتيم. لكنه يتم الأكرمين. وبعبارة أخرى يتم الذي ينتهي إليه الطفل حينما يكون أبوه من أولئك الذين قلت فيهم:

وَمَنْ أَنْاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا

لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرُ

ولا تنسوا أنّ هذا النوع من اليتيم ليس اليتيم الذليل المهين الذي تتحطّم به أعصاب صاحبه بل هو النار التي تسقي الحديد فيصبح بها فولاذاً شديداً المكسر.

ضربة موسيقية.....

ولئن لم يكن من المنتظر أن يضمّني ناصر الدولة إلى أهله وهو قاتل أبي، فمن الطبيعي أن أجد عند سيف الدولة، صاحب حلب، الملجأ والعرين. والحق أنّ سيف الدولة لم يأل جهداً في تربيّتي تربية حسنة. حملني إلى بلاطه وضمّني إلى أسرته وكفاني مؤونة العيش ووضع لي خير المعلمين بين أدباء وشعراء ولغويين وعلى رأس رجال اللغة منهم ابن خالويه.

نسيت أن أقول لكم أنني من مواليد عام 320 هـ أول 932 م. ولم يقف سيف الدولة عند هذا النوع من التربية. بل جعلني أيضاً رجل حرب وفارس ميدان عارفاً بأصول الطعان مدركاً لأسرار الكر والفر قادراً على قيادة الجيوش وأنا بعد فتى طري العود.

ضربة موسيقية.....

وبفضل هذه التربية نشأت نشأة شاعر الفرسان وفارس الشعراء. ووقفت حياتي كلها على تقتيل الفرسان من العدو وصنع الكلام المنظوم الذي يجيش بجملة الحمية وصادق الولاء والحب ويحفل بالغواني الحسان ممن تسير الركبان بذكر جمالهن وطراوة فتوتهن ونعومة لفتاتهن. يكفي لتصور حياتي هذه أن تعلموا أن سيف الدولة قد ولاني إمارة منبج، وأنا بعد في العشرين من عمري، ملء إهابي شباب فتى ورجولة تتسابق إلى معانقتهما بيض السيوف وبيض الحسان. ثم سجّلت أول انتصار لي حين أخضعت قبيلتي لكلب وغير وقد عملت في نفوس أهلها دعوة القرامطة فخفقت في رؤوسهم شهوات العصيان والتمرد..

ضربة موسيقية.....

لكنّ الأبطال لا ينتصرون دائماً في ساحة القتال. فيوم لهم ويوم عليهم. هكذا خاني النصر في يوم لم يكن فيه أيّ احتمال لنشوب قتال. المهم أن الحظ قد خاني ف وقعت أسيراً في أيدي الروم. ولو شئت النجاة بنفسني لفعلت ولكنني رفضت نصيحة تحضني على الفرار وأثبت قدمي في مستنقع الموت فأصببت بسهم في فخدي ثم قلت في هذا المعنى:

أَسْرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعَزَلٍ لَدَى الْوَعْيِ

وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَلَا رَبُّهُ عَمْرٌ

وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى إِمْرِي

فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلَا بَحْرٌ

وَقَالَ أَصِيحَابِي الْفَرَارُ أَوْ الرَّدَى

فَقُلْتُ هُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مُرٌّ

وَلَكِنِّي أَمْضِي لِمَا لَا يُعِينِي

وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَسْرُ

وامتد أسري أربع سنوات طوال. وظننت في سيف الدولة أسوأ الظنون. وكان هناك من يصبّ الزيت في نار الواقعة فيزيّن لي من صنوف العداوات المزعومة عند سيف الدولة ألوانا. وكدت أكون ضحية لهذه الوشائيات

لولا أنّ القدر الرحيم قد تدخّل فتاحت الفرصة المناسبة للأمير حلب وبادر إلى افتدائي مع ثلاثة آلاف رجل من خيرة فرسانه كانوا في أسر الروم.

ضربة موسيقية.....

وعدت إلى حلب الشهباء لأجد أمامي في شخص أميرها وابن عمي سيف الدولة رجلاً حطّمته الحروب وأصابه شلل نصفي واجتمعت عليه المكاره وقد أصاب الروم منه مقتلاً في معركة من المعارك الطاحنة حين دخلوا إلى حلب وعاثوا فيها فساداً وخرّبوا قصر الأمير ثم عادوا من حيث أتوا.

وقد والله شقيت نفسي بما رأيت وتاقت إلى الثأر. ورحت استعدّ لليوم الذي استردّ فيه الكرامة المضیعة والنصر الذاهب. ولكنّ إرادة الله لحكمة لا ندرکها، وهو الغالب فوق عباده، فرّقت بيني وبينه بعد أشهر معدودات حين توفي متأثراً بالمكاره التي نزلت به والشلل الذي أصابه.

وجاء بعده ولده وابن أختي سعد الدولة أبو المعالي فقرّرت بيني وبين نفسي أن أحمي هذا الملك وأن أكون السند والولي. لكنني لم اكن من رجال السياسة. وما كان يخطر في بالي ما يعدّه أولئك الذين يتعيّشون بالحكم من وراء الستار ويتسلّحون بالخدیعة والمكر. وأدرکت بعد فوات الأوان ما يحیکه قرغويه وزير أبي المعالي من الدسائس والمؤثرات للقضاء على أسرتنا الحاكمة وانتزاع الملك من ابن أختي الساذج الغرير.. فما تراجعت عن مواجهة المسؤولية وقررت تثبيت الملك للأسرة التي أنتمي إليها. ولكنّ ابن أختي لم يدرك ما يوضع في خفية عنه ولم أحسن إقناعه بدوري، فأعلنت الثورة وكان لقاء بيني وبين القائد التركي قرغويه الذي يريد إعادة أيام كانور في مصر والاستبداد بحكم حلب. ودارت عليّ الدائرة حين عاجلني القائد قرغويه بالقتل فسقطت في ميدان المعركة عام 357 هـ وأنا بعد في السابعة والثلاثين من عمري.

ضربة موسيقية...

والواقع أنّ الناس بعد قتلي قد ذهبوا مذاهب عدة في تفسير ما حدث لي ولابن أختي من بعدي الذي خسر الملك وطرده من بلده سنة 358 هـ. أما الحقيقة فلا يدركها غيري أنا وقد قلتها لكم وأنا في نجوة من شهوات التسلّط والتحكّم واقف بين يدي علام الغيوب. لكن الناس اتفقوا على رثائي والتحصّر على شبابي فراحوا يردّون من بعدي:

زين الشباب أبو فراس لم يمتع بالشباب.....

ضربة موسيقية....

لعلكم راغبون في معرفتي ومعرفة رأيي فيما انتهى إليه أمري؟ ولعلكم حين تتذكرون أنّ بقائي في ذاكرة التاريخ هو بفضل المجد الغني الذي حملت الكيل غاره، تثبتون من ثمّ بأنّ المجد الأدبي هو المجد الباقي وما سواه باطل الأباطيل.

لقد مات ناصر الدولة وذهبت رسوم سيف الدولة وولده سعد الدولة أبي المعالي واختفت آثار القائد قرغويه. وبقيت أنا. مع العلم أنّي كنت ضحية الغرور الذي تصنعه أمجاد السيوف. لقد بقيت بفضل الشعر بعد موتي ورفضت أن يقال عني "شاعر" وأنا حيّ أرزق. كنت أقول:  
وصناعتي ضرب السيوف وإنني متعرض في الشعر بالشعراء  
وقلت أيضاً:

فطقت بفضلني وامتدحت عشيرتي فما أنا مداح ولا أنا شاعر

والعجيب في أمرنا نحن الذين وجدنا مجدنا الحقيقي الباقي في الشعر كنا ونحن أحياء لا نرى في الشعر غير حرفة الارتزاق الطفيلي والوقوف على الأعتاب والتمرّغ في تراب المهانة والمذلة. ولم أكن بدعاً من الشعراء الفرسان فقد كان يعاصرني أبو الطيب المتنبي الذي ذاب وهدأ بالحكم وعشا إلى ضوء السلطان والنفوذ. وكان من قبلي ومن بعدي رجال منحتهم العناية الإلهية موهبة المجد الأدبي ولكنهم لم يتردّدوا في بذل كلّ شيء من أجل الوزارة والملك. منهم محمد ابن الزيات وابن عباد وابن الأثير وابن العميد وابن أبي دؤاد وغيرهم ممّن لا تحضرنني أسماؤهم. فأين هؤلاء بأمجادهم كلها من مجد أبي عثمان الجاحظ الذي وقف عند مكتبته لا يتجاوزها ورفض التعرض لعواصف السلطان وشهوات التسلط.

ضربة موسيقية.....

والواقع أنّ الندم لا يفيد. ولكنني مع ذلك رجل محظوظ. فإذا لم أجد متعة المجد الأدبي في حياتي فقد وجدتها في موتي. وقد حق للمجد الأدبي أن أقول فيه رأيي دون أن أفكر في استجداء العطف والركض وراء كلمات الإعجاب المزيف.

كان شعري سهل العبارة لا تعمل فيه ولا اصطناع. ومن فضل الله عليّ أنّي لم أكن أزور عواطفي فلا أقول إلا ما أحسنّ به ولا أردّد غير الرأي الذي أعتنقه.

أفر من السوء لا افعله ومن موقف الظلم لا اقبله

وقد علم الحي حي الضباب وأصدق قيل الفتى أفضله

بأنيّ كففت وأنيّ عففت وإن كره الجيش ما أفعله

وعندما برّحني الشوق إلى حياة الأحرار وأنا في قيود الأسر قلت:

مُصَابِي جَلِيلٍ وَالْعَزَاءُ جَمِيلٌ  
وَوَطَّنِي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ  
جِرَاحُ نَحَامَاهَا الْأُسَاءُ مَخَوْفَةٌ  
وَسُقْمَانِ بَادٍ مِنْهُمَا وَدَخِيلُ  
وَأَسْرُ أَقَاسِيهِ وَلَيْلُ نُجُومِهِ  
أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرُهُنَّ يَزُولُ  
تَطُولُ بِي السَّاعَاتُ وَهِيَ قَصِيرَةٌ  
وَفِي كُلِّ دَهْرٍ لَا يَسْرُكُ طَوْلُ  
تَنَاسَانِي الْأَصْحَابِ إِلَّا عُصْبِيَّةً  
سَتَلْحَقُ بِالْأُخْرَى غَدًا وَتَحُولُ  
وَإِنَّ وَرَاءَ السِّتْرِ أُمَّاً بُكَاءُهَا  
عَلَيَّ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ طَوِيلُ  
فِيَا أُمَّتَا لَا تَعْدَمِي الصَّبْرَ إِنَّهُ  
إِلَى الْخَيْرِ وَالنُّجْحِ الْقَرِيبِ رَسُولُ  
وَيَا أُمَّتَا لَا تُحْطِي الْأَجْرَ إِنَّهُ  
عَلَى قَدْرِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَزِيلُ  
ضربة موسيقية.....

يبقى أن أذكركم بأن مطربة كبيرة من مطرباتكم في القرن الرابع عشر الهجري قد اختارت من شعري ما سكبت فيه ذوب القلب ودموع العين وزفرات الصدر. في هذه المختارات لم اصطنع الحزن. بل تصرفت فيه صادقاً في غير إفراط أو تفريط. ألم تقل صاحبة الصوت القوي الجهير التي تحبونها جميعاً كل كلمة من كلمات شعري المعنى وقد لعبت معها بقلوب الملايين؟ اسمعوا بعض هذا الشعر فتدركوا سبب اختياره :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمُتَكَ الصَّبْرُ  
أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ  
بَلَى أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ  
وَلَكِنَّ مِثْلِي لَا يُذَاعُ لَهُ سِرُّ  
إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطَتْ يَدَ الْهَوَى

وَأَذَلْتُ دَمْعاً مِنْ خَلَائِقِهِ الْكَبِيرُ

تَكَادُ تُضِيءُ النَّارَ بَيْنَ جَوَانِحِي

إِذَا هِيَ أَذَكَّتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْفِكْرُ

ولا أخفي عليكم أنّ شدة الوجد قد غيبت عني بعض المعاني الكريمة فبدوت أناانياً حين قلت بعد ذلك :

مُعَلَّلَتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ

إِذَا مِتَّ ظَمَاناً فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ

ضربة موسيقية.....

ثلاثة أشياء تميزت بها من الشعراء: فأنا لم أتكسب بالشعر كما فعل غيري بمن فيهم أبو الطيب المتنبي، فخلا شعري من الاصطناع الكاذب. وأنا لم أجعل شعري معرضاً لألوان من الفسوق والمجون والعبث فقد احتفظت لشعري بالمعنى الشريف والكلمة الشريفة. وأنا أخيراً لم أجعل من الشعر حرفة لي أعود إليه لأنقحه وأهذبه وأعيد النظر في معانيه. ذلك أنني أرسل الشعر عفو الخاطر دون تعمل واصطناع. فهو كأنفاسي التي يعلو بها صدري ويهبط بطيئاً تارة وسريعاً تارة أخرى وحراراً عنيفاً مرة ثالثة. إنه قصة حياتي عارية من الأصباغ تضطرب فيها الأحداث كما كتب لها أن تكون.

ضربة موسيقية.....

والواقع أنني بهذا الشعر الذي نجا من صناعة المتكسبين وأناقتهم وتفاهات السوق منهم قد تنقلت من فن إلى فن. ففخرت بشخصي وبأبناء أسرتي الحمدانيين لم أنس منهم جدّي حمدان وعمي الحسين وأبي جعفر ثم عمّي أبي الهيجاء. ثم تغزلت كما يتغزل الفارس بفتاة أحلامه كلفاً بها يقول الشعر المصقّى ويصوّر عواطفه في صدق لا يخلو من خيلاء السلاح وأناية الفارس مع شرف في الأفكار وعلو في الهمة.

ولم أنس ليالي الأونس ومن قضيت معهم هذه الليالي من أخوان الصدق ورفاق الشباب. وكان ممن ذكرتهم في أخوانياتي وفي مقدمتهم: أبو حسين علي بن عبد الملك قاضي حلب. فقد كانت بيني وبينه مودة نجت مع علي صفوها. فإذا تباعدنا كانت بيننا مكاتبات شعرية محببة. ولعل خير ما أنهي به هذا التعريف هو الإشارة إلى الروميّات. وهي القصائد التي نظمتهما وأنا في قيود الأسر. إنّ فيها ما لا سبيل معه إلى تجاهل طبيعتي الفنية الصادقة. وأحسن ما قلته من روميّاتي وهي كثيرة، مناجاتي لتلك الحمامة التي تعرفونها كلكم أو يعرفها أكثركم على الأقل :

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ

أَيَا جَارَتَا هَلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي

مَعَاذَ الْهَوَى مَا ذُقْتَ طَارِقَةَ النَّوَى  
وَلَا حَطَرْتَ مِنْكَ الْهُمُومُ بِبَالِ  
أَتَحْمِلُ مَحْزُونََ الْفُؤَادِ قَوَادِمُ  
عَلَى عُصْنِ نَائِي الْمَسَافَةِ عَالِ  
أَيَا جَارَتَا مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا  
تَعَالَى أَقْسَمُكَ الْهُمُومُ تَعَالَى  
تَعَالَى تَرَى رُوحاً لَدَيَّ ضَعِيفَةً  
تَرَدَّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذِّبُ بَالِ  
أَيَضْحَكُ مَأْسُورٌ وَتَبْكِي طَلِيقَةً  
وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ وَيَنْدِبُ سَالِ  
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى مِنْكَ بِالدَّمْعِ مُقَلَّةً  
وَلَكِنَّ دَمْعِي فِي الْحَوَادِثِ غَالِ  
ضربة موسيقية.....

وبعد هل عرفتموني وقد قدّمت إليكم ما قدمت من أبناء حياتي وشعري؟ إذا لم تكونوا قد عرفتم من أنا.. فأنا  
الحارث بن سعيد بن حمدان المكنى بأبي فراس. ولدت للمجد وسقطت ضحية الحفاظ على المجد..